


# نقد كبار علماء الحنابلة

## للتصوف وأهله

الكاتب

د. خالد كبير علال



# نقد كبار علماء الحنابلة للتصوف وأهله

خاص إحسان

د.خالد كبير علال

يعتبر علماء الحنابلة من أكثر علماء أهل السنة انتقادا للتصوف وأهله، لأنهم ورثوا عن إمامهم موقفه المتشدد من الصوفية عندما ذم طريقتهم، وحذر من صحبتهم[1]. ولما رأوه في سلوكهم من انحرافات كثيرة عن الشرع[2]. ومن أشهرهم نقدا لهؤلاء ثلاثة من كبار علمائهم، هم: ابن عقيل، وابن الجوزي، وابن تيمية .

**أولا: نقد ابن عقيل للتصوف والصوفية:**

انتقد أبو الوفاء بن عقيل(ت513 هـ/1119م)، الصوفية في منهاجهم وسلوكياتهم، فمن ذلك أنه ذكر أن مما يسقط مشايخهم في عينيه ،هو أن أحدهم إذا خوطب بمقتضى الشرع قال :عادتي كذا وكذا .يشير إلى طريقة قد قننها لنفسه تخرج عن سمت الشرع فهو إذن مختلق طريقة ،وكل مختلق مبتدع ولو كان في ترك السنن، لأن الاستمرار على تركها خذلان[3]. وأعاب عليهم كذلك تغيير أسماء بعض المحرمات، واطلاق عليها عبارات أخرى، كقولهم في الاجتماع على الغناء: الأوقات،

[1] ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص: 189 .

[2] سنذكر بعضها فيما يأتي من هذا المبحث

[3] ابن تيمية :درء تعارض العقل والنقل ج4 ص: 136

وفي المعشوقة :أخت، وفي المرأة المحبة :مريدة ،وفي الرقص والضرب :الوجد ،وفي اللهوي والبطالة: رباط، وهذا تحريف وتمويه غير مباح شرعا.[4]

وقارنهم بالمتكلمين فإنتهى إلى أن أهل الكلام يفسدون عقائد الناس ،بتوهيمات شبهات العقول، والصوفية يفسدون الأعمال، ويهدمون قوانين الأديان، ويحبون البطالات وسماع الأصوات، وما كان السلف الصالح على ذلك المنهاج ،فقد كانوا في العقائد عبيد تسليم، وفي الأعمال أرباب جد[5]. وفضل عليهم أي الصوفية المتكلمين الذين يزلون الشك ،أما هم فيوهمون التشبيه في مجال الصفات[6]. وهو قد فضل عليهم المتكلمين لغلبة علم الكلام عليه لأن من طغى عليه النظر العقلي كان ذمه لمنحرفة العباد ،أكثر من ذمه لمنحرفة المتكلمين[7].

واتخذ ابن عقيل موقفا حازما من دعوى الصوفية :يسلّم للشيخ حاله .فيرى أنها دعوى اتخذها مشايخ الصوفية للتسلطن بها على اتباعهم، ودفعا للاعتراض عليهم .وإلاّ فإن الاعتراض مشروع على كلّ إنسان، ألم ترى أن الصحاب- رضي الله عنهم –قد اعترضوا على النبيّ –عليه الصلاة والسلام –عندما أظهر لهم أشياء لم يفهموها يوم الحديبية. وحتى الملائكة تسألوا عندما قالوا لله تعالى: ((أتجعل فيها ))-سورة البقرة/ 30- وقال موسى عليه السلام: ((أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ))[8]-سورة الأعراف -/155- .ثمّ أننا نجد شيخ رباط يخلوا بأمرد ويسمع منه أو من امرأة حرة الغناء، ويأكل الحرام ويرقص، ولا يسأل الفقهاء ،ولا يبني أمره على الشرع ويتصرف انطلاقا من وجدانه وواقعاته، ويقول اتباعه: (( الشيخ يسلم إليه طريقته ((. ثم قرر ابن عقيل أنه لا طرقة مع الشريعة ولم يبق لأحد معها قول، وما

---

4 ابن الجوزي: تلبيس ابليس ص :391

5 نفس المصدر ص: 416

6 نفس المصدر ص :417.

7 ابن تيمية :المصدر السابق ج4 ص :136، 137.

8 ابن الجوزي: المصدر السابق ص :416

جاءت هي إلاّ بهدم العوائد، ونقض الطرائق، و(( ما على الشريعة أضرّ من المتكلمين والمتصوفة ))[9]. وعلى العكس منه نجد الفقيه تاج الدين السبكي الشافعي يدعوا إلي الاعتقاد في الصوفية والتسليم لهم في أحوالهم وحسن الظن بهم، وانتقد الفقهاء الذين يحكمون على ظاهر هؤلاء[10].

وردا عليه أقول: إن الله –عز وجل– قد أوجب على كل مسلم الخضوع لشرعه، ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم))–سورة النساء/65– ومن ثم لا يحق للصوفية ن ولا لغيرهم من الناس أن يستثنوا أنفسهم من الخضوع للشرع والاحتكام إليه. وأما انتقاده للفقهاء في حكمهم على الصوفية من خلال ظاهرهم، فهم على صواب وهو على خطأ، لأن الشريعة الإسلامية تحكم على الناس بناء على ظاهرهم، وتترك بواطنهم لعلام الغيوب، لذا كان الرسول–عليه الصلاة والسلام– يعامل المنافقين معاملة المسلمين، وهو يعلم ما يكنونه في صدورهم من كفر ونفاق وخداع[11]. لذا فإني أوافق ابن عقيل في اعتراضه على الصوفية ، ورده عليهم في دعوى: تسليم للشيخ حاله. لأن حجته في ذلك قوية دامغة .

وأوجب ابن عقيل ذمهم–أي الصوفية– ووصفهم بأنهم: زنادقة في زي عباد شرهين، ومشبهة خلعاء. لأفعالهم المنكرة المخالفة للشرع، فهم يحبون البطالات والاجتماع على الملذات، وويعتمدون على بواطنهم ويتكلمون كالكهان، ويقول أحدهم: (( قال لي قلبي عن ربي))[12]. ويستميلون المردان والنسوان بإلباسهم خرقة التصوف وجمعهم في السماعات. كما أنهم يفسدون قلوب النساء على أزواجهم، ويقبلون طعام الظلمة والفساق، ولا عمل لهم في أربطتهم إلا الأكل والرقص والغناء،

---

[9] ابن تيمية: المصدر السابق ج 4 ص :135.

[10] السبكي: معيد النعم ص: 88 .

[11] انظر: ابن هشام: مختصر سيرة ابن هشام ص: 151 ، 184 .

[12] ابن تيمية: المصدر السابق ج 4 ص: 134 ، 135

مـع تمزيـق الثيـاب، والصـعق والزعـق والتمـاوت، وتحريـك الطبـاع والرعـونات بالأسـجاع والألحان[13].

**ثانيا: نقد ابن الجوزي للتصوف والصوفية:**

اشـتد الفقيـه عبـد الـرحمن بـن الجـوزي (ت597 هـ/1200م) في انتقـاد الصـوفية، وخصـص لـذمهم وانتقـاد مـذهبهم قسـما كبـيرا مـن كتابيـه: تلبـيس إبلـيس ، وصـيد الخـاطر . فمـن ذلـك أنـه أعـاب عليهم تـركهم للعلـم وتنفـير النـاس منـه، واقتصـار بعضـهم علـى القليـل منـه ن بـدعوى الاكتفـاء بعلـم البـاطن، ولا حاجـة للوسـائط، وإنمـا هـو: قلب ورب[14].

لـذلك انحـرف أكثـرهم في عبـاداتهم، وقلـت علـومهم، وتكلمـوا في الشـرع بآرائهـم الفاسـدة، فـإذا أسـندوا فـإلى حـديث ضـعيف أو موضـوع، أو يكونـوا فهمهـم منـه رديئـا وإذا خاضــوا في التفســير كــان غالــب كلامهــم خطــأ وهــذيانا. ولجهلهــم بالشــرع وابتـداعهم بالـرأي ابتكـروا مـذهبا زينـه لهـم هـواهم، ثم تطلبـوا لـه الـدليل مـن الشـرع، فاستدلوا بآيات لم يفهموها، وبأحاديث لها أسباب وجمهورها لا يثبت[15].

وعـن موقـف الصـوفية مـن العقـل والنقـل، واعتـزازهم بمـذهبهم نقـل ابـن الجـوزي عـن الصـوفي عبـد الكـريم القشـيري(ت465 هـ/1072م) قولـه: (( حجـج الصـوفية أظهـر مـن حجـج كـل أحـد، وقواعـد مـذهبهم أقـوى مـن قواعـد كـل مـذهب، لأن النـاس إمـا أصـحاب نقـل وأثـر، وإمـا أرباب عقـل وفكـر، وشـيوخ هـذه الطائفـة ارتقـوا عـن هـذه الجملــة، والــذي للنــاس غيــب فلهــم ظهــور، فهــم أهــل الوصــال، والنــاس أهــل الاسـتدلال)) ثم عقـب عليـه ابـن الجـوزي بقولـه: (( مـن لـه أدنى فهـم يعـرف أن هـذا

---

[13] ابن الجوزي: المصدر السابق ص: 415. وابن مفلح: الأداب الشرعية والمنح المرعية ج 2 ص: 333، 334 .
[14] ابن الجوزي: نفس المصدر ص: 359. وصيد الخاطر ص: 339
[15] نفس المصدر ص: 240، 371 وما بعدها. ونفسه ص: 25، 27، 412

الكلام تخليط، فإن من خرج عن النقل والعقل فليس بمعدود في الناس، وليس أحد من الخلق إلا وهو مستدل. وذكر الوصال حديث فارغ، فنسأل الله العصمة من تخليط المريدين والأشياخ ))[16].

وما قاله القشيري خطير جدا ينتهي بمن يأخذ به إلى إبعاد الشرع، وتعطيل العقل، ليعبد الله –بعد ذلك- على هواه، فلا يفرق بين الحلال والحرام، ولا بين ما يجب لله ما لا يجب له، فيضل ويضل ويصدق عليه قوله تعالى: (( ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله )) [سورة القصص/50].

وأعاب على مشايخهم تكلمهم في القرآن الكريم بغير علم، وقولهم فيه خلاف أقوال المفسرين، فذكر أن الصوفي أبا عبد الرحمن السلمي(ت412 هـ/1021م) صنف تفسيرا[17] جمع فيه أقوالا لهم أكثرها هذيان. منها أن الصوفي أبا القاسم بن محمد الجنيد البغدادي(ت298 هـ/910م) فسر قوله تعالى: (( سنقرئك فلا تنسى))-سورة الأعلى / 6- بمعنى لا تنس العمل به. وفسر قوله تعالى: (( ودرسوا ما فيه ))-سورة الأعراف/169- بتركوا العمل به.

وهذان التفسيران عند ابن الجوزي غير صحيحين ظاهرين الغلط، فقوله في الآية الأولى، هو خلاف إجماع العلماء، إذ فسرها على أن فيها نهي، والصحيح إنما هو خبر لا نهي وتقديره: فما تنسى-أي فيها نهي- ولو كان نهيا لجزم الفعل. وأما قوله في الآية الثانية بأن معناها: تركوا العمل به ن فهو خطأ، لأن معناها الدرس الذي هو التلاوة، من قوله تعالى: (( بما كنتم تدرسون )) [سورة آل عمران /79]، لا من دروس الشيء الذي هو هلاكه[18]. ثم ختم ابن الجوزي تعقيباته على تفسيراتهم

---

[16] ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص: 246

[17] سماه حقائق التفسير، قال عنه الذهبي: (( أتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية ))، ونقل عن الخطيب البغدادي، أن عبد الرحمن السلمي غير ثقة، كان يضع الأحاديث للصوفية. الذهبي: تذكرة الحفاظ ج 3 ص: 1046 .

[18] ابن الجوزي: المصدر السابق ص: 370 .

بقوله: (( وإنما العجب من هؤلاء —و كانوا يتورعون من الكلمة واللقمة- كيف انبسطوا في تفسير القرآن الكريم إلى ما هذا حده ))[19].

و أشار ابن الجوزي إلى أن كبار مؤلفي الصوفية كالحارث بن أسد المحاسبي البغدادي (ت 243 هـ/857م)، وأبي نعيم أحمد الصفهاني(ت430 هـ/1038م)، وأبي حامد الغزالي(ت505 هـ/1111م)، جمعوا في مصنفاتهم الأكاذيب والعجائب، والاعتقادات الباطلة، والكلام المرذول ، وملؤوها بالأحاديث غير الصحيحة والدقائق القبيحة، وأمروا فيها بأشياء مخالفة للشريعة، ولم يستندوا فيها على أصل، وغنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض، ثم دونوها وسموها علم الباطن[20].

وانتقدهم في بعض سلوكياتهم داخل الأربطة، فمنها أنهم أخلدوا فيها إلى البطالة، وأراحوا أنفسهم من طلب الرزق وإعادة العلم، ولا صلاة نافلة ولا قيام ليل. وإنما أكثر همهم التظاهر بالمرقعات وطلب الملذات، وسماع الأغاني من المردان، والمبالغة في المأكول والمشروب[21]. ثم قارنهم ابن الجوزي بمتقدميهم، فقال أن أولئك قد لبس عليهم الشيطان بتقليل الطعام، وعدم شرب الماء البارد وأما المتأخرون فقد لبس عليهم بكثرة الأكل ورفاهية العيش، واستراح هو من التعب واشتغل بالتعجب منهم[22].

و أخذ ابن الجوزي على بعض مشايخ الصوفية الأوائل دعوتهم إلى الجوع وتقليل الطعام، ومجاهدة النفس بترك مباحاتها . ونبه إلى أن اتباع الشرع وما كان عليه الصحابة أولى من اتباع هؤلاء، وأن النفس مطية، على الإنسان أن يرفق بها ليصل

---

[19] نفس المصدر ص: 374

[20] ابن الجوزي: المصدر السابق ص: 186 وما بعدها. وصيد الخاطر ص: 470 .

[21] ابن الجوزي: صيد الخاطر ص: 338، 411 .

[22] ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص: 232 .

إلى مقصوده، فيعطيها ما يصلحها ويمنعها ما يضرها، والجسم في حاجة ماسة إلى مختلف أنواع الغذاء[23].

وقوله هذا صحيح لأن الاعتدال في الأكل هو المطلوب، فلا إفراط ولا تفريط، لقوله تعالى: ((كلوا واشربوا ولا تسرفوا ))-سورة الأعراف/31-، ولأن الجسم يتضرر من كثرة الأكل، كما يتضرر من قلته. وقد روي أن الصوفي أبا محمد بن شكر اليونيني البعلي(ت647 هـ/1249م) داوم على خشونة العيش، وكثرة الجوع والمجاهدة ن فحصل له يبس أفسد مزاجه وأورثه تخيلات، فتارة يتخيل أن جماعة تريد اغتياله، وتارة يتوهم أنه اطلع على أماكن فيها كنوز وأموال كثيرة[24].

وانتقدهم كذلك في تميزهم بلباس الفوط المرقعات وتظاهرهم بها، وهو أمر مكروه وليس من الشريعة لعدة وجوه، منها: أنهم لبسوها من غير فقر، ولم يلبس السلف الثياب المرقعات إلا ضرورة. وأنهم ادعوا الفقر وقد أمرنا بإظهار نعم الله علينا. وأنهم أظهروا الزهد-الذي قد يورث فيهم الكبر- والمطلوب منهم ستره[25]. وفي ذلك يروى أن عالما قال لجماعة من أصحاب المرقعات: ((إخواني إن كان لباسكم موافقا لسرائركم، لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، وإن كانت مخالفة لسرائركم، فقد هلكتم ورب الكعبة ))[26]. وفي حرصهم على ارتداء الخرق المرقعات، أشار ابن الجوزي إلى أنهم اختلقوا حديثا في لبسها، له إسناد متصل كله كذب ومحال[27].

و يلاحظ على هؤلاء القوم أنهم بقدر حرصهم على التظاهر بالاهتمام بتطهير النفوس من أمراضها، وترويضها على الصبر والقناعة بالقليل، فإنهم من جهة أخرى تبدوا عليهم جليا مظاهر الكبر والتعالي، والاهتمام بالشكليات. فيدعون أنهم أرباب

---

[23] نفس المصدر ص: 172، 173 ن 240

[24] اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج 3 ص: 135

[25] ابن الجوزي :صيد الخاطر ص: 338. وتلبيس إبليس ص: 214

[26] ابن الجوزي: تلبيس ص: 215

[27] ابن الجوزي: نفس المصدر ص: 216

القلوب والبواطن والوصال، ويزدرون أصحاب العقل والنقل، ويحرصون على التميز عن الناس بلباس صوفي مرقع. أوليس من الأحسن لقلوبهم وأخلاقهم، ستر أحوالهم وعدم التميز عن غيرهم بالمرقعات ؟!.

وأشير هنا إلى أن المظاهر السلبية التي ذكرها ابن الجوزي عن الصوفية، قد وجدت قبل زمانه واستمرت إلى ما بعده. فمن ذلك أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي505 هـ/1111م)، روى أنه لما شاعت دعاوى الصوفية العريضة بين العوام، كالعشق والمشاهدة، وارتفاع الحجاب، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، ترك أناس أعمالهم اليومية وتصوفوا، وأظهروا تلك الدعاوى واستلذوا مناخ البطالة[28].

وروى الفقيه تاج الدين السبكي(ت 771هـ/1369م) أن الصوفية في عصره قد كثر عددهم واتخذوا الخوانق طريقا للدنيا، فارتدوا لباس الزور، وأكلوا الحشيش-المخدر-، وانهمكوا في طلب الملذات ن حتى قيل فيهم: (( أكلة بطلة سطلة، لا شغل ولا مشغلة ))، وقيل كذلك: (( نعوذ بالله من العقرب والفار، ومن الصوفي إذا عرف الدار ))[29].

و لم يكتف ابن الجوزي بانتقاد عوام الصوفية وذمهم، بل انتقد كذلك خواصهم وأعلامهم، كأبي حامد الغزالي، ومحمد بن طاهر المقدسي(ت507 هـ/1113م)، وعبد القادر الجيلاني(ت 561 هـ/1165م). ففيما يخص الغزالي فذكر عنه أنه خالط الصوفية، وأخذ بنصائحهم، ونظر في كتب قدمائهم، فاجتذبه ذلك كلية[30] وأبعده عن قانون الفقه. ثم تعجب منه كيف نزل من رتبة الفقيه إلى رتبة الصوفي ؟! حتى أنه-أي الغزالي- قال: لا ينبغي للمريد إذا تاقت نفسه للجماع، أن يأكل ويجامع ، فيعطيها شهوتين فتقوى عليه. وهذا-في نظر ابن الجوزي- مخالف للسنة،

---

[28] أبو حامد الغزالي: إحيار علوم الدين ج 1 ص: 61 .

[29] السبكي: معيد النعم ص: 125

[30] انتقل الغزالي إلى التصوف في سنة 486 هـ/1093م . أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم ج 2 ص: 30.

فقـد جمـع النـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- في مأكلـه شـهوتين، فأكـل القثـاء[31] بالرطـب، وطاف على نسائه بغسل واحد. فهلا اقتصر على شهوة واحدة[32].

وتعجـب منـه في سـلبيته تجـاه الصـوفية وأخـذه بنصـائحهم المخالفـة للفقـه، مـع معرفتـه وفهمـة. فمـن ذلـك أنـه أخـذ بنصـيحة أحـد كبـار الصـوفية أمـره فيهـا بـترك المواظبـة علـى تـلاوة القـرآن الكـريم، وأن لا يلتفـت قلبـه إلى أهـل وولـد، ولا إلى مـال وعلـم، ويتفـرغ لقـول: الله، الله ، ويواظـب عليـه حـتى يفـتح بمـا فـتح علـى الأنبيـاء والأولياء[33].

ثم قـال عنـه أنـه باع الفقـه بالتصـوف بأرخـص الأثمـان، عنـدما ذكـر أشـياء تخـالف الشـريعة ولم ينكرهـا، بـل حكاهـا واستحسـنها كوسـيلة للتربيـة والتعلـيم، منهـا أنـه روى أن بعـض الشـيوخ عـن القيـام في الليـل، فلـزم نفسـه القيـام علـى رأسـه طـول الليـل لتطاوعـه علـى القيـام. وحكـى أن عابـدا كـان شـديد الحـب للمـال، فعـالج نفسـه بأن باع كـل مـا يملـك، ورمـي بالمـال في البحـر، ولم يفرقـه علـى النـاس خوفـا علـى نفسـه مـن الرياء، ورعونة النفس[34].

وإقـدامهما علـى هـذين الفعلـين منكـر مخـالف للشـريعة، فهـي قـد نهـت عـن إضـاعة المـال وإذاء الجسـم، فالقيـام علـى الـرأس يـؤدي إلى انعكـاس الـدم إليـه، وهـذا يضـر بالإنسـان ويسـبب لـه أمراضـا[35]. كمـا أن تصـرف هـذين الـرجلين دافعـه -علـى مـا يبـدو- الجهـل أو حـب المحمـدة، أو كلاهمـا معـا. فالـذي جمـع مالـه -مـثلا- ورمـاه في البحـر خزفـا مـن الـرياء، كـان في مقـدوره البحـث عـن وسـيلة أخـري يـربي بهـا نفسـه ولا يضـيع بهـا مالـه، وإن أصـر علـى الـتخلص منـه، فليخـرج بـه لـيلا أو باكـرا -في وقـت لا

---

[31] القثاء، هو ثمرة يشبه الفقوس . علي بن هادية: قاموس الطلاب الجديد ص: 815 .

[32] ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص: 240 .

[33] ابن الجوزي: صيد الخاطر ص: 344 .

[34] ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص: 394.

[35] ابن الجوزي: المصدر السابق ص: 395 .

يـراه فيـه النـاس- ويتركـه في أي طريـق، ليأخـذه النـاس، أحسـن لـه مـن أن يرميـه في البحر .

وأمـا محمـد بـن طـاهر المقدسـي، فـذكر عنـه عبـد الـرحمن بـن الجـوزي أنـه صـنف كتـابا في التصـوف، يضـحك (( مـن يـراه، ويعجـب مـن استشـهاده علـى مـذاهب الصـوفية بالأحاديـث الـتي لا تناسـب مـا يحـتج لـه مـن نصـرة الصـوفية ))[36]. وروى عنـه أنـه كـان يقـول بمـذهب الإباحيـة في النظـر إلى المـردان ولـه قصـيدة فيهـا التحلـل مـن الشـريعة، ومدح النصارى[37].

وحكـي عنـه أنـه قـال: مـن سـنن الصـوفية الـتي ينفـردون بهـا، وينتسـبون إليهـا، صـلاة ركعتـين بعـد ارتـداء الخرقـة والتوبـة، واحـتج علـى ذلـك بحـديث الصـحابي ثمامـة بـن آثال فإنـه عنـدما أسـلم أمـره الرسـول-صـلى الله عليـه وسـلم- بالاغتسـال. ثم عقـب عليـه بقولـه: إن مـا ذهـب إليـه ابـن طـاهر هـو مـن أقـبح الجهـل، لأن ثمامـة كـان كـافرا فأسـلم، فوجـب عليـه الغسـل ولـيس في الخـبر صـلاة ركعتـين فيقـاس عليهـا، ولا قـال بهـا العلمـاء ،فهـذا ابتـداع لا سـنة. ومـن أقـبح الأشـياء قولـه أن الصـوفية ينفـردون بسـنن، فهـي وإن كانــت مــن الشــرع فالمســلمون كلهــم مطــالبون بهــا، وإن لم تكــن منــه فهــم الــذين اخترعوها[38].

ثم أشـار ابـن الجـوزي إلى أن العلمـاء الـذين مـدحوا ابـن طـاهر المقدسـي، إنمـا أثنـوا عليـه لأجـل حفظـه للحـديث، وإلا فـالجرح أولى بـه. وتعجـب مـن الحـافظ أبي سـعد عبـد الكـريم السـمعاني(ت563 هـ/1167م) مـن انتصـاره لابـن طـاهر بـلا شـيء، إلا قولـه: (( لعلـه تاب ))[39]. لكـن المحـدث محمـد بـن عبـد الهـادي المقدسـي(ت744

---

[36] ابن الجوزي: المنتظم ج 9 ص: 178 .

[37] نفسه ج 9 ص: 178 . والذهبي: تاريخ الإسلام ج: 501-520هـ/ ص: 174 .

[38] ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص: 198 .

[39] ابن الجوزي: المنتظم ج 9 ص: 178 .

هـ/1343م) أنكـر أن يكـون ابـن طـاهر يقـول بالإباحـة المطلقـة، لأنـه مـن أهـل الحديث المعظمين للآثار، لكنه أخطأ في إباحة السماع والنظر للمرد[40].

و آخرهم الشيخ عبد القادر الجيلاني، لم يكن على وفاق مع ابن الجوزي، فقد روى أن هذا الأخير كان يغض من قدره ولا ينصفه، وصنف كتابا في ذمه، نقم فيه عليه أشياء كثيرة[41]. لكنني لم أعثر لابن الجوزي على أي نقد أو ذم صريحين لعبد القادر الجيلاني و إن كان يوجد ما يوحي إلى أنه لم يكن على علاقة حسنة معه. فمن ذلك أنه ترجم له في كتابيه: مناقب الإمام أحمد، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، فلم يمدحه ولم يقدح فيه، ولم يترحم عليه، وسماه: عبد القادر ، دون عبارة أخرى تدل على مكانته، كالشيخ، والفقيه، والعالم، وجاءت ترجمته في ثمانية أسطر وكلمات[42].

وفي هذا يقول المؤرخ الذهبي: (( ولم تسع مرارة ابن الجوزي بأن يترجمه بأكثر من هذا، لما في قلبه له من البغض، نعوذ بالله من الهوى ))[43]. وهو-أي ابن الجوزي- وإن لم يتوسع في معظم تراجم عصره –الذين ذكرهم في تاريخه- فقد كان في إمكانه أن يذكر للشيخ الجيلاني ترجمة حافلة، مرصعة بجواهر كلامه الوعظي، لكنه لم يفعل ذلك في حين ترجم لأبي الوفاء بن عقيل في ثلاث صفحات، وللوزير ابن هبيرة في نحو أربع صفحات[44].

فمها هي أسباب تنافر الرجلين وهما حنبليان بغداديان يجمعهما مذهب واحد، أصولا وفروعا ؟ يبدو لي أن أهمها سببان، الأول هو التصوف، فإنه قد فرق بينهما، فالجيلاني قطب من أقطاب الصوفية، وابن الجوزي من كبار العلماء المنتقدين

---

[40] محمد بن عبد الهادي: طبقات علماء الحديث ج 4 ص: 16 .

[41] الذهبي: سير أعلام النبلاء ج 21 ص: 376 . وابن رجب: المصدر السابق ج 1 ص: 295 .

[42] ابن الجوزي: المصدر السابق ج 10 ص: 219 . ومناقب الإمام أحمد ص: 531 .

[43] الذهبي: تاريخ الإسلام ج: 561-570هـ/ ص: 89 .

[44] انظر: ابن الجوزي: المنتظم ج 9 ص: 212 وما بعدها. و214 وما بعدها .

للتصوف والناقمين على أتباعه، لذا قيل أنه أنكر على الجيلاني تصرفات صدرت منه في كتابه الذي ذمه فيه. والثاني هو الحسد، فيبدو أن ابن الجوزي كان يحسد الشيخ عبد القادر وينافسه، لما له من جاه في بغداد وخارجها، مما دفعه إلى بغضه وعدم إنصافه. وهذا لا يليق بعالم مثله، والجيلاني ليس من أقرانه، فهو بمثابة والده إذ يكبره بأكثر من خمس وثلاثين سنة[45].

وعن سبب اشتداد ابن الجوزي في نقد الصوفية ،يرى الحافظ ابن رجب الحنبلي أنه لما كان ابن الجوزي عظيم الخبرة بأحوال السلف الأول، ولما له من حظ من أذواق الصوفية ومشاركتهم في بعض معارفهم، اصبح لا يعذر المشايخ المتأخرين، في مخالفتهم لطريق المتقدمين، ويشتد في الإنكار عليهم. ومن ساق المتأخرين مساق الأوائل وطالبهم بسيرتهم في العلم والعمل، والورع وكمال الخشية، فلا ريب أنه يزدري المتأخرين، ويمقتهم ويهضم حقوقهم، فالأولى تنزيل الناس منازلهم، وتوفيتهم حقوقهم، ومعرفة مكانتهم ن وإقامة معاذيرهم[46]، وهذه مبالغة في تبرير سلوكيات هؤلاء والاعتذار لهم لأن ابن عقيل وابن الجوزي–مثلا– قد أنكرا عليهم تصرفات كثيرة–سبق ذكرها– مناقضة للشرع، وليس لهم فيها عذر مقبول، إلا الانحراف واتباع الهوى، والجهل بالشرع .

وأما الباحث زكي مبارك فقد علق على انتقادات ابن الجوزي للصوفية، بقوله)) : وقد شغل ابن الجوزي نفسه بتعقب الصوفية، فنقل عنهم حكايات غريبة وعلق عليها تعليقات تدل على بصر بدقائق علم النفس والأخلاق ))[47] و(( قد أطلنا الاقتباس من ابن الجوزي لأن الصفحات التي كتبها في هذا الموضوع ن من خير ما قرأنا في الدرسات النفسية والخلقية، لأنها تصور ما كان يعرض للصوفية من الحيرة

---

[45] ولد الجيلاني في سنة 471 هـ/ 1078م وابن الجوزي ولد ما بين سنتي 507–510 هـ/1113–1116م . ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ج 1 ص: 299. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج 4 ص: 329 .

[46] ابن رجب: المصدر السابق ج 1 ص: 295 .

[47] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، بيروت المكتبة العصرية ،ج 2 ص: 195 .

المطبقة، في تفهم مسالك الرشد والغي، ومعالم الهدى والضلال ))[48] ، ثم انتقل إلى التعريض بابن الجوزي فقال: (( ومن الذي يضمن أن بكون ابن الجوزي صادقا في كل ما كتب عن مغامز الصوفية ))، و(( أي مظهر للجبن وأقبح وأبشع أن تصنف الكتب الطوال العراض في مثالب الصوفية، على حين يترك الملوك الظالمون في العصور الماضية، بلا رقيب ولا حسيب ؟ وما وضع ابن الجوزي وأمثاله في نقد الاستبداد، وكان يعيش في عصر لا تحترم فيه ملكية، ولا تحتفظ حقوق ؟ أين ما كتب هؤلاء المتفيهقون في الفساد الخلقي والاجتماعي، الذي كان يندلع لهيبه من قصور الوزراء والأمراء ))[49] .

وأقول-ردا عليه-: إنه بالغ في تعظيم الأمر ونفخه ،لأن ابن الجوزي لم يخص الصوفية بالانتقاد دون غيرهم من الطوائف، فقد انتقد المتكلمين والفلاسفة، والشيعة والخوارج، والفقهاء والوعاظ، والولاة والسلاطين، والقراء وعامة الناس[50]. ولم يكن ساكتا عن كل ما يجري في مجتمعه، فكثيرا ما كان في مجالسه الوعظية يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحذر الناس والأمراء والأعيان من مغبة الظلم، والانحراف عن الشرع[51]. وكان أبو الوفاء بن عقيل ينكر على الصوفية ورجال الدولة على حد سواء، وله إلى بعضهم رسائل تحذير وانتقاد[52].

وللفقيه أبي الفضل بن أحمد العلثي الحنبلي (ت643 هـ/1236م) مواقف شجاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على الخليفة ومن دونه من

---

[48] نفس المرجع ج 2 ص: 198-199 .

[49] نفس المرجع ج 2 ص: 202، 204-205 .

[50] انظر: تلبيس إبليس ص: 49 وما بعدها .

[51] انظر: المنتظم: ج 10 ص: 263، 264، 265، 276، 270، 272، . ابن رجب: المصدر السابق ج 1، ص: 407 ، 408 ، 409، وما بعدها .

[52] انظر: ابن الجوزي: نفس المصدر ج 9 ص: 86 .

المسؤولين، والفقهاء والصوفية، فتعرض للمضايقات، ودخل السجن[53]. كما أنه كثيرا من الصوفية كانوا طرفا في اللعبة السياسية، لأن معظم أربطتهم بناها لهم الخلفاء والسلاطين والأمراء، وأوقفوا عليها أوقافا كثيرة تضمن لهم فيها العيش الرغيد، وشجعوهم على مجالس الغناء مقابل الولاء والدعاء لهم بتخليد الملك واستمرار المدد.

كما أن ابن الجوزي لم ينفرد بانتقاد الصوفية وذمهم ، فقد انتقدهم ابن عقيل، وأبو حامد الغزالي، وتاج الدين السبكي[54]، وقال عنهم الأديب كمال الدين بن جعفر الأدفوي الشافعي(ت748 هـ/1347م): إن الغفلة والجهل فيهم كثير،و أن بعضهم ينكر بداهة العقول، ويؤمن باجتماع النقيضين لفرط جهلهم[55]. وأنكر على طائفة منهم حضور مجالس الغناء بالشبابات والدفوف، مع الرجال والنساء، والشباب والمردان، ووصف أفعالهم هذه بأنها بدع فظيعة شنيعة[56].

**ثالثا: نقد ابن تيمية للتصوف وأهله:**

انتقد شيخ الإسلام بن تيمية الصوفية في منهاجهم الصوفي، فهم-في نظره- قد عظموا الإرادة القلبية وذموا الهوى، وأهملوا النظر العقلي. ثم كثيرا منهم لم يميز بين الإرادة الشرعية الموافقة للكتاب والسنة، وبين الإرادة البدعية المخالفة لهما ز فهم على عكس المتكلمين الذين عظموا النظر، واعرضوا عن الإرادة القلبية، لكنهم مثل الصوفية في عدم الاعتصام بما جاء به الرسول-عليه الصلاة والسلام-. لكنه اعترف

[53] ابن رجب: المصدر السابق ج 2 ص: 205 .
[54] سبق ذكر أقوالهم
[55] الأدفوي: الطالع السعيد ص: 133، 653 .
[56] نفس المصدر ص: 724 .

بأن في طريق الصوفية أمورا محمودة في الشرع، قد لا يعرفها منتقدوهم من المتكلمين[57].

وأشار إلى أن من أخطاء الصوفية أنه تقع لهم في بواطنهم أشياء، فيظنون أنها في الخارج فمن ذلك أن جماعة منهم عندما يغلب عليهم الذكر والمحبة والمعرفة، وينعكس ذلك على قلوبهم ويحصل لهم ذوق واستغراق، يظنون أن ما يجدونه في باطنهم أمرا مشهودا بعيونهم، فيدعون أنهم يرون الله تعالى بأبصارهم، وهذا غلط وضلال، لأن أهل السنة متفقون على أن الله لا يراه أحد بعينيه في الدنيا، لما رواه مسلم من أن النبي–عليه الصلاة والسلام قال: (( واعلموا أن أحدا منكم لن ير ربه حتى يموت ))[58].

و انتقدهم في بعض سلوكياتهم، منها أن طائفة منهم تدعي أن أكل الحشيشة المخدرة تنشط على أداء الصلوات وتعين على استنباط العلوم وتصفية الذهن. حتى أنهم يسمونها معدن الفكر والذكر، ومحركة الغرام الساكن. وهذا كله من خدع النفس ومكر الشيطان بهؤلاء لأن تلك الحشيشة هي عمى للذهن ،تجعل آكلها أبكما مجنونا لا يعي ما يقول[59]. ومنها أنهم يروون احاديث في السماعي عن النبي–عليه الصلاة والسلام – ليست صحيحة ،بل هي باطلة موضوعة باتفاق أهل العلم كقولهم أنه–عليه الصلاة والسلام–:تواجد حتى سقطت بردته وأنه مزق ثوبه، وأخذ جبريل بعضه وصعد به إلى السماء[60].

و أعاب ابن تيمية على أبي حامد الغزالي تقسيمه للذكر إلى ثلاثة مراتب ،الأولى: قول العامة لا اله إلاّ الله. والثانية: قول الخاصة الله، الله. والثالثة: قول

---

[57] ابن تيمية: درء تعرض العقل والنقل ج 4 ص: 136-137 .

[58] ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج 5 ص: 490 .

[59] ابن تيمية: التفسير الكبير ج 4 ص: 150.

[60] ابن تيمية: منهاج السنة ج 4 ص :116. وخلاف الأمة ص :117. 118.

خاصة الخاصة، هو ،هو. وبدّعه في ذلك لأن الذكر المفرد: الله ،الله والمضمر: هو، هو بدعة في الشرع، وخطأ في القول واللغة. لأن الاسم المفرد ليس هو كلاما، ولا إيمانا، ولا كفرا. والمضمر ليس بمشروع ،ولا هو بكلام يعقل ،ولا فيه إيمان، وهو معارض للشرع. لأنه قد ثبت في الصحيح أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (( أفضل الذكر بعد القرآن وهي من القرآن: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر)) وفي حديث آخر: (( أفضل الذكر لا اله إلاّ الله ))[61].

وكفّر ابن تيمية كبار الصوفية الإتحاديين القائلين بوحدة الوجود كعمر بن الفارض المصري )ت 632 هـ /1234 م، ومحي الدين بن عربي الطائي الأندلسي (ت 638 هـ/ 1240 م (و قطب الدين بن سبعين الإشبيلي (ت 669 هـ/ 1270 م، وعفيف الدين التلمساني (ت 690 هـ/ 1291 م )، وعدهم من ملاحدة الإتحادية وجعل كفرهم أظم من كفر اليهود والنصارى. وابن عربي مع كونه كافر فهو أقرب الإتحاديين إلى الإسلام ،لما يوجد في أقواله كثير من الكلام الجيد، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ،بل هو كثير الاضطراب فيه، والله اعلم بما مات عليه[62].

و ذكر ابن تيمية أن الشيخ العز بن عبد السلام كان قد كفر ابن عربي لقوله بقدم العالم ، فبل أن يظهر قوله بوحدة الوجود، من أن العالم هو الله، وصورة له وهذا أعظم من كفر القائلين بأزلية الكون. وحكى–أي ابن تيمية– عن نفسه أنه كان ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه، لما في كتبه من فوائد، كما في الفتوحات المكية، والدرة الفاخرة . لكنه غير رأيه فيه عندما اطلع على كتابه فصوص الحكم

---

[61] ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج 10 ص :396

[62] نفس المصدر ج 2 ص :143

ونحوه، لما فيه من الكفر الباطن والظاهر، وباطنه أقبح من ظاهره، وهو يمثل مذهب وحدة الوجود[63].

و يستنتج مما ذكرناه عن نقد علماء الحنابلة للتصوف وأهله-خلال القرنين:6-7هـ/12-13م- أنهم وجهوا لهم انتقادات مست منهاجهم وسلوكياتهم، فانتقدوهم في أنهم أقاموا منهجهم على أساس من العاطفة والإرادة القلبية، ولم يلتزموا بالشرع في تأسيسه وتقويمه، ولم يعطوا للعقل مكانته.

وفي سلوكياتهم أنكروا عليهم كثرة المظاهر السلبية المنتشرة بينهم، والمخالفة للشرع الأمر الذي فتح مجالا واسعا لكبار علماء الحنابلة، من انتقادهم، والتشهير بهم، كما فعل ابن عقيل، وابن الجوزي، وابن تيمية، وهي مجهودات تصب كلها في تيار نشاطهم العلمي النقدي، الذي مس مختلف العلوم النقلية والعقلية والأدبية.

---

[63] نفس المصدر ج 2 ص \" 131 ، 464 ، 465 .